

جغرافية السلوك و التخطيط الحضري

د. علي شيخ أعظمي و أمير رضا قائم مقامي فرد

ترجمة بتصرف

أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة

مدرسة جغرافية السلوك ، نموذج مهم في الجغرافيا والتخطيط الحضري ، تُركز على دراسة السلوك البشري وعلاقته بالبيئات الجغرافية . ظهر هذا النهج في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي استجابةً للأسلوب الكمي في الجغرافيا ، ويسعى إلى فهم وتفسير العمليات العقلية والإدراكية للأفراد في الفضاءات الحضرية (توان، ١٩٧٤). وخلافاً للمنظورات التقليدية التي ركزت على العلاقات المكانية والأنماط الموضوعية ، تستكشف جغرافية السلوك العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية في التفاعلات بين الإنسان والبيئة (جولد، ١٩٨٠) . يكمن أحد التطبيقات المهمة لهذه المدرسة في التخطيط الحضري في فهم كيفية إدراك المواطنين وسلوكهم في البيئات الحضرية وتأثير ذلك على قرارات التخطيط (جوليدج وستيمسون، ١٩٩٧) . يُساعد هذا المنظور على فهم أفضل لاستخدام المساحات الحضرية ، ومعالجة التفاوتات الاجتماعية ، وصياغة سياسات حضرية فعالة (نوكس وبينش، 2000) .

علاوة على ذلك ، تُشكّل دراسة السلوكيات المكانية واتخاذ القرارات الفردية في مجالات مثل الإسكان والنقل والأماكن العامة محورا أساسيا لهذا النهج (موسر، 2009) . ونظراً لتعقيد المساحات الحضرية المعاصرة ، تُوفّر المناهج السلوكية في الجغرافيا إطاراً متيناً لتحليل القضايا الحضرية . ويمكن لدراسة الأبعاد السلوكية والإدراكية في التخطيط الحضري أن تُحسّن جودة حياة المواطنين وتُساهم في تصميم مساحات تُلبّي بفعالية الاحتياجات الفعلية للمجتمع (باسيون، 2005).

منهجية البحث

تعتمد منهجية هذه المقالة الاستعراضية على منهج نوعي وتحليل وثائقي ، مع التركيز على دراسة وتحليل الأدبيات العلمية الموثوقة المتعلقة بمدرسة جغرافية السلوك وتطبيقاتها في التخطيط الحضري (كريسويل، ٢٠١٣) . في البداية ، تم استرجاع الدراسات السابقة حول جغرافية السلوك والتخطيط الحضري وتحليلها من قواعد بيانات مرموقة مثل Web of Science و Scopus و ScienceDirect. وشملت هذه الدراسات كتباً ومقالات بحثية وأوراق مراجعة منشورة في مجلات ISI عالية التأثير (نيومان، ٢٠١٤) . استخدمت منهجية تحليل المحتوى النوعي لتحديد المفاهيم والأنماط الرئيسية في أدبيات جغرافية السلوك (كريندورف، ٢٠١٨) . هدف هذا التحليل إلى استخلاص المبادئ الأساسية لهذه المدرسة ، واتجاهاتها التاريخية ، وتطبيقاتها في التخطيط الحضري . ركز البحث على تحديد وتصنيف مواضيع مهمة ، مثل الإدراك المكاني ، والسلوكيات المكانية ، وتأثير العوامل الاجتماعية والنفسية في البيئات الحضرية (بريمان، ٢٠١٥) . ولضمان موثوقية البحث وصلاحيته ، طُبّق أسلوب التثليث في المصادر. تضمن هذا النهج التحقق المتبادل من النتائج من مصادر متعددة للتأكد من أن التحليلات تستند إلى أدلة كافية وموثوقة (ين، ٢٠١٨). وأخيراً ، عُرضت نتائج هذه التحليلات في شكل أنماط وموضوعات رئيسية ، تنعكس في جميع أنحاء المقالة مع الإشارة إلى مصادر موثوقة .

مراجعة الأدبيات

ظهرت جغرافيا السلوك ، كمنهج رئيسي في مجال الجغرافيا ، في ستينيات القرن الماضي كاستجابة للنهج الكمي في الجغرافيا ، مؤكدةً على فهم السلوك البشري في علاقته بالبيئات الجغرافية (توان، ١٩٧٤) . ركز هذا النموذج على تصورات الأفراد والجماعات ومواقفهم وصنع القرار، بهدف تفسير العمليات العقلية في التفاعلات بين الإنسان والبيئة (جولد، ١٩٨٠) . بخلاف المنظورات الكمية التي تُعطي الأولوية للأنماط والعلاقات الموضوعية ، تدرس جغرافيا السلوك الأبعاد النفسية والمعرفية للمكان (جوليدج وستيمسون، ١٩٩٧) . في مجال التخطيط الحضري ، تكتسب جغرافيا السلوك أهمية بالغة ، إذ يُمكن أن يؤدي تحليل سلوكيات المواطنين إلى فهم أفضل لاستخدام الفضاء الحضري ، ويُسهّم في تصميم حضري فعّال (نوكس وبينش، ٢٠٠٠).

على سبيل المثال ، يُمكن لفهم تصورات الأفراد للأماكن العامة أن يُحسّن جودتها ويُعالج التفاوتات الاجتماعية (موسر، ٢٠٠٩) . تُشير الدراسات إلى أن دمج العوامل السلوكية في التخطيط الحضري يُحسّن عملية اتخاذ القرارات الاستراتيجية ويُعزز بيئات أكثر استدامة وتركيزًا على الإنسان (باسيوني، ٢٠٠٥) . في العقود الأخيرة ، ركزت الأبحاث بشكل متزايد على تحليل الأنماط السلوكية المتعلقة بمختلف القضايا الحضرية ، بما في ذلك الإسكان والنقل واستخدام الأراضي (كيتشن ودودج، ٢٠١١) .

المناقشة

تهدف مدرسة جغرافيا السلوك ، كنهج مبتكر في الجغرافيا ، إلى تحليل التفاعلات المعقدة بين البشر والبيئات الجغرافية ، مما يوفر فهماً أعمق للسلوكيات المكانية . وعلى عكس الجغرافيا الكمية التي تسعى إلى أنماط موضوعية وقابلة للقياس ، تُركز جغرافيا السلوك على التصورات والمواقف والقرارات الفردية والجماعية . وتلعب هذه المدرسة ، من خلال تركيزها على السلوكيات الفردية والاجتماعية ، دورًا هامًا في تطوير مناهج التخطيط الحضري ، لا سيما في إنشاء مساحات تتوافق مع الاحتياجات البشرية الحقيقية (جوليدج وستيمسون، ١٩٩٧).

التركيز على التصورات والتجارب الإنسانية

من الجوانب الرئيسية لجغرافيا السلوك محاولتها توضيح الاختلافات بين التصورات والحقائق الموضوعية . في حين أن البيانات الكمية تُحلل عادةً المساحات الحضرية من منظور موضوعي ، فإن جغرافيا السلوك ترى أن البشر يدركون المساحة بشكل ذاتي ، متأثرين بتجاربهم الشخصية وإدراكاتهم الخاصة بهم . يمكن أن يكون لهذا التمييز بين "المساحة الحقيقية" و"المساحة المُدركة" آثارًا بعيدة المدى على التخطيط الحضري . بمعنى آخر، تتأثر السلوكيات المكانية بشكل كبير بتجارب الأفراد المعيشية ، وتفاعلاتهم الاجتماعية ، وخلفياتهم الثقافية (توان، 1974).

إن فهم تصورات المواطنين للمساحات الحضرية العامة والخاصة ، وكيفية تفاعلهم معها ، يمكن أن يؤدي إلى فهم أفضل لاستخداماتها واحتياجاتها . على سبيل المثال ، تعتمد تصورات السلامة ، والجماليات ، واستخدام الأراضي في أي مساحة بشكل كبير على التفسيرات الذاتية للأفراد . لذلك ، بدلاً من الاعتماد فقط على البيانات الكمية ، يجب على مخططي المدن دراسة هذه التصورات والمشاعر بعناية لإنشاء مساحات أكثر ملاءمةً وجاذبيةً للحياة الحضرية (رالف، 1976) . ومن خلال دمج الرؤى السلوكية في التخطيط ،

يمكن لمصممي المدن معالجة الاحتياجات الحقيقية والمتنوعة للمواطنين ، وتعزيز الرضا والتفاعل والشعور بالانتماء داخل البيئة الحضرية .

تحليل السلوكيات المكانية وأثرها على التصميم الحضري

من أهم نتائج هذه الدراسة أهمية تحليل السلوكيات المكانية لتحسين جودة التصميم الحضري . تُقدم السلوكيات المكانية، بما في ذلك أنماط الحركة ، واستخدام المساحات العامة ، والتفضيلات المكانية ، ونوع التفاعلات الاجتماعية في المساحات الحضرية ، رؤية قيمة لتحسين التصميم الحضري وتخصيص الموارد . وتشير الأبحاث إلى أن فهم كيفية استخدام الأفراد للمساحات العامة ، مثل الحدائق والساحات والشوارع ، بالإضافة إلى العوامل المؤثرة في هذه الخيارات ، يُمكن مصممي المدن من إنشاء مساحات تلبي احتياجات المواطنين بشكل حقيقي (جولد، ١٩٨٠).

على سبيل المثال ، أظهرت الدراسات أن المساحات العامة المُصممة بفعالية لا تُعزز التفاعلات الاجتماعية بين المواطنين فحسب ، بل تُسهم أيضاً في تحسين جودة الحياة الحضرية . لذلك ، يُمكن لنهج جغرافية السلوك أن يُساعد مُخططي المدن على مراعاة ليس فقط الاحتياجات الاقتصادية والاجتماعية ، بل أيضاً الأبعاد النفسية والذاتية للمساحات الحضرية (موسر، ٢٠٠٩).

دور الثقافة والهوية في التخطيط الحضري

في جغرافية السلوك ، تُعد الثقافة والهوية الفردية والاجتماعية عوامل حاسمة في الإدراك المكاني والسلوكيات . قد يؤدي التخطيط الحضري الذي يُغفل هذه العناصر إلى استياء عام . وقد أثبتت الدراسات أن إدراك التأثيرات الثقافية والاجتماعية في التصميم والتطوير الحضري يُمكن أن يؤدي إلى مساحات ليست مثالية وظيفياً فحسب ، بل جذابة نفسياً ومقبولة للمواطنين أيضاً (باسيوني، ٢٠٠٥).

تُشير الأبحاث إلى أن الشعور بالمكان والانتماء الثقافي يلعب دوراً حيوياً في تعزيز الروابط الإيجابية بين المواطنين والبيئات الحضرية . إن إدراك اختلاف استجابة الأفراد للمساحات الحضرية بناءً على عوامل ثقافية واجتماعية يساعد المخططين على تصميم مساحات حضرية تتوافق مع الهويات الاجتماعية المتنوعة . ولا يقتصر هذا النهج على تعزيز الانسجام الاجتماعي فحسب ، بل يمنع أيضاً احتمالية الشعور بعدم الرضا والاغتراب في البيئة الحضرية (جيل، ٢٠١٠) . من خلال دمج المعطيات الثقافية والهوية في التخطيط الحضري ، يمكن للمصممين إنشاء مساحات شاملة ومستدامة تتوافق مع الاحتياجات النفسية والثقافية لمختلف سكان المناطق الحضرية .

تأثير جغرافية السلوك على صنع السياسات الحضرية

تُبرز نتائج هذه الدراسة أن تطبيق مبادئ جغرافية السلوك في صنع السياسات الحضرية يُمكن أن يُسهم في إنشاء مدن تلبي الاحتياجات النفسية والاجتماعية لمواطنيها . هذا النوع من التخطيط لا يُحسن جودة حياة الأفراد فحسب ، بل يُعزز أيضاً المشاركة العامة ويُعزز شعورهم بالانتماء إلى المدينة . وبالتحديد ، ووفقاً لنظريات جغرافية السلوك ، ينبغي تصميم البيئات الحضرية لتمكين الأفراد من التنقل بحرية ، والانخراط في تفاعلات اجتماعية صحية ، وتجربة الأمان والسكينة في المساحات الحضرية (نوكس وبينش، 2000).

من خلال دمج هذه المبادئ ، يمكن للسياسات الحضرية معالجة الأبعاد السلوكية والنفسية للمواطنين ، مما يؤدي إلى مدن أكثر ملاءمة للعيش وأكثر شمولاً . ويمكن لصانعي السياسات الاستفادة من رؤية جغرافية

السلوك لتحديد احتياجات وتفضيلات مختلف الفئات الاجتماعية ، مما يضمن تصميم المساحات الحضرية بما يحقق الشمولية والتناغم.

تحديات وقيود جغرافية السلوك في التخطيط الحضري

في حين أن مدرسة جغرافية السلوك توفر إمكانيات كبيرة لتحسين عمليات التخطيط الحضري ، إلا أنها تواجه العديد من التحديات والقيود التي يمكن أن تُعقّد تطبيقها في التصميم الحضري وصنع السياسات . تُبرز هذه التحديات الحاجة إلى دراسات إضافية وتطوير أدوات مناسبة لتطبيقها العملي:

- **تعقيد السلوكيات البشرية** : يتأثر السلوك البشري في البيئات الحضرية بعوامل مختلفة ، بما في ذلك الثقافة والاقتصاد والسياسة وعلم النفس الفردي (جوليدج وستيمسون، 1997). هذا التعقيد يُصعّب التنبؤ بالسلوكيات المكانية ، ويُبرز الحاجة إلى نماذج دقيقة ومتعددة الأبعاد . بالإضافة إلى ذلك ، قد تتطور استجابات الأفراد للبيئات الحضرية بمرور الوقت ، مما يُضيف المزيد من التعقيد إلى الدراسات السلوكية .

- **صعوبة جمع بيانات دقيقة**: يُعدّ الحصول على بيانات دقيقة وموثوقة حول السلوكيات البشرية أحد التحديات الأساسية في جغرافية السلوك . (مونتيلو، ٢٠٠٧) . غالبًا ما تُجمع البيانات السلوكية باستخدام أساليب نوعية ، مثل المقابلات والاستطلاعات والملاحظات الميدانية ، والتي قد تكون عرضة للتحيزات الفردية . علاوة على ذلك ، يتطلب جمع البيانات على نطاق المدن الكبرى وقتًا وموارد كبيرة ، وهو ما قد لا يكون ممكنًا في العديد من مشاريع التخطيط الحضري .

- **الذاتية والتفسير النفسي للسلوكيات**: تُركز جغرافية السلوك على التصورات الذاتية للأفراد لبيئاتهم وتجاربهم الشخصية . هذا التركيز على الذاتية يُعقّد تفسير السلوكيات ، حيث قد تختلف النتائج اختلافًا كبيرًا باختلاف الفئات الاجتماعية والسياقات (توان، ١٩٧٧). وبالتالي ، قد لا تكون النتائج قابلة للتعميم ، مما يتطلب دراسات متعددة خاصة بحالات محددة لمراعاة وجهات النظر المتنوعة لسكان المناطق الحضرية .

- **نقص الأدوات التحليلية المتقدمة**: على الرغم من أن التقنيات الحديثة ، مثل نظم المعلومات الجغرافية (GIS) ونظام تحديد المواقع العالمي (GPS) ، قد حسّنت تحليل البيانات المكانية ، إلا أنه ما تزال هناك حاجة إلى تطوير أدوات تحليلية أكثر تطورًا لدراسة السلوك البشري في البيئات الحضرية . على سبيل المثال ، يتطلب التحليل السلوكي خوارزميات معقدة ومتعددة الأبعاد ، يمكنها أن تأخذ في الحسبان التفاعلات الاجتماعية والنفسية والثقافية في آن واحد ، (Couclelis 2004)

- **التأثيرات الثقافية والاجتماعية المتغيرة**: تتغير العوامل الثقافية والاجتماعية باستمرار ، مما يؤثر على السلوكيات المكانية للأفراد . ونتيجة لذلك ، يجب تحديث النماذج السلوكية بانتظام ، وأن تتمتع بفهم عميق للاختلافات الثقافية والاجتماعية . وهذا مهم بشكل خاص في المدن أو المجتمعات متعددة الثقافات التي تمر بتحولات اجتماعية ، حيث يمكن أن تختلف أنماط السلوك بشكل كبير . (2013)

(Knox & Marston

- **القيود العملية في صنع السياسات الحضرية**: غالبًا ما يواجه تنفيذ السياسات القائمة على جغرافية السلوك عوائق إدارية وسياسية . قد يتردد صانعو القرار الحضريون في تبني مناهج سلوكية ، أو قد لا يكون هناك تمويل كافٍ لدعم المشاريع القائمة على هذا النهج (هارفي، ٢٠٠٩) .

الخاتمة والتوصيات

يوفر نهج جغرافية السلوك ، كمنظور جديد في الجغرافيا ، فهماً أعمق للسلوك المكاني البشري وتأثيره على البيئات الحضرية . ويستند هذا النهج إلى افتراض أن البشر يدركون المساحات ليس فقط من منظور مادي ، بل أيضاً من منظور نفسي واجتماعي ومعرفي . لذلك، فإنه ينبغي ان يصمم التخطيط في الحضر لتلبية الاحتياجات البشرية على مستويات متعددة ، ليس فقط من حيث الوظيفة ، بل أيضاً من الناحيتين العاطفية والثقافية . ويمكن أن يؤدي هذا النهج إلى إنشاء مدن لا تقتصر على تحسين استخدام الأراضي والأنشطة الاقتصادية فحسب ، بل توفر أيضاً تجربة إيجابية وممتعة لسكانها . وقد أبرزت دراسة هذا النهج وتطبيقه على التخطيط الحضري ضرورة تكيف البيئات الحضرية باستمرار لمراعاة التغيرات الاجتماعية والثقافية والنفسية . علاوة على ذلك ، فإن فهم السلوكيات المكانية للمواطنين والعوامل المؤثرة عليها يمكن أن يساعد في تحسين جودة الحياة الحضرية . وعلى وجه الخصوص ، يتطلب تأثير التصورات الفردية والاجتماعية على تصميم المساحات العامة تحليلاً أكثر شمولاً ودقة ، وهو جانب لم يُستكشف بشكل كافٍ في بعض الدراسات .

على الرغم من المزايا العديدة لنهج جغرافية السلوك ، إلا أن هناك تحديات تؤثر على عملية التخطيط الحضري . تشمل هذه التحديات صعوبات جمع وتحليل البيانات السلوكية ، والحاجة إلى أدوات جديدة لمعالجة هذه البيانات ، وتعقيدات فهم السلوكيات المكانية في سياقات اجتماعية مختلفة . ومن المقترحات للبحوث المستقبلية الاتي :

- البحث في الآثار الثقافية والاجتماعية في التخطيط الحضري : هناك حاجة إلى مزيد من البحث لاستكشاف تأثير الثقافات المختلفة على السلوكيات المكانية وخيارات المواطنين المكانية في المساحات الحضرية . ويمكن أن يؤدي هذا البحث إلى إنشاء مساحات حضرية تتوافق مع هويات مختلف الثقافات.
- تقييم الآثار النفسية في تصميم المساحات الحضرية: ينبغي أن تركز الدراسات المستقبلية بشكل أكثر دقة على تحليل الآثار النفسية والإدراكية لتصميم المساحات الحضرية على السلوكيات الفردية والاجتماعية . ويمكن أن يساعد هذا البحث في فهم كيفية تفاعل الناس مع المساحات الحضرية وتحسين جودتها .
- توسيع نطاق استخدام التقنيات الحديثة في تحليل السلوك المكاني: إن استخدام التقنيات المتقدمة ، مثل نظم المعلومات الجغرافية (GIS) ونظام تحديد المواقع العالمي (GPS)، لجمع البيانات السلوكية وتحليل أنماط الحركة والتفاعلات الاجتماعية ، يمكن أن يؤدي إلى دقة أكبر في تصميم المساحات الحضرية . ويمكن أن تركز الأبحاث المستقبلية على استخدام هذه التقنيات في التخطيط الحضري، وإنشاء نماذج سلوكية أكثر دقة.
- دراسة تأثير السلوكيات المكانية على مختلف المقاييس الحضرية : يمكن أن تساعد الأبحاث التي تُجرى على مختلف المقاييس الحضرية ، من الأحياء إلى المناطق الحضرية الكبرى ، في تحديد الاختلافات الإقليمية في السلوكيات المكانية . ويمكن أن تُقدم هذه الدراسات حلولاً لتحسين استخدام المساحات العامة على مختلف المقاييس الحضرية .
- دراسة دور السياسات الحضرية في تشكيل السلوكيات المكانية : يمكن للبحوث المستقبلية أن تدرس دور السياسات العامة والحضرية في تشكيل السلوكيات المكانية للمواطنين ، وكيف تؤثر هذه السياسات على تحسين جودة الحياة الحضرية.